سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

شرح «كشف الشبهات»

الدرس الثاني

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الثاني

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ الله سبحانه بِالعِبَادَةِ وَهُوَ دِينُ الرُّسُلِ الَّذِين أَرْسَلَهُمُ اللهُ بِهِ إِلى عِبَادِهِ.

فَأَوَّلُهُمْ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلى قَوْمِهِ لَـمَّا غَلَوْا في الصَّالِحِينَ: وَدٍّ، وَسُوَاعٍ، وَيَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرٍ.

وَآخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُوَرَ هَؤُلاَءِ الصَّالِحِينَ، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلى أُنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ وَيَحُجُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَذْكُرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ المَخْلُوقات وَسَائطَ بَيْنَهم وبَيْنَ الله، يَقُولُونَ: نُرِيدُ مِنْهُمُ التَّقَرُّبَ إِلى الله، ونُرِيدُ شَفَاعَتَهُم عِنْدَهُ، مِثْل المَلائكَةِ وعِيسَى وَمَرْيَمَ وأُنَاسٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي بعث محمدا بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله، وكفىٰ بالله شهيدا، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما مزيدا.

أما بعد..

فهٰذا شروع منّا في هٰذه الرسالة؛ في شرح هٰذه الرسالة العظيمة «**كشف الشبهات**» للإمام المصلح المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وأجزل له المثوبة.

ونستعين الله جل جلاله وتقدست أسماؤه، ونسأله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أنْ يعلِّمنا منها علما نافعا، وأن يقينا في فهمها الزلل والخطل، وأن يجعل أفهامنا صائبة وقلوبنا ذات بصيرة.

هٰذه الرسالة سُميت (**كشف الشبهات**)، وقد ذكر طائفة من العلماء منهم ابن غنّام في «تاريخ نجد» أنه أرسلها للناس في القرىٰ لأجل أن يكشف بعض الشبه التي شبّه بها علىٰ التوحيد أعداءُ دعوة الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ، فهي مصنّفة لأهل التوحيد الذين نُشرت فيهم بعض الشبه، نَشر تلك الشبه بعض العلماء الذين ورِثوا علوم المشركين وحبذوا الشرك بالله وأيدوه ودعوا الناس إليه ودافعوا عنه، نعوذ بالله من الضلال.

اسم هٰذه الرسالة (**كشف الشبهات**).

والكشف هو حسر الشيء عن الشيء، كشف الرأس يعني حسره؛ حسر ما عليه حتىٰ ظهر، وكشف البأس إذا أزاله وهٰذه المادة في القرآن كثيرة (**فلما كشفنا عنهم السوء**)[1] كما قال جل وعلا في الآية الأخرىٰ ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[النمل:٦٢]، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم] ونحو ذلك، فالكشف بمعنىٰ الإزالة.

---

(١) لم أجدها وإنما وجدت: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾[الأعراف:١٣٥]، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾[يونس:١٢]، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾[الزخرف:٥٠].

والشبهات جمع شبهة، وهي المسألة التي جُعلت شَبَهًا بالحق؛ لأن الحق عليه دليل بيّن واضح، والشبهة سميت شبهة لأنها مسألة من مسائل العلم أورد عليها أصحابُها بعض الأدلة التي يظنونها علمًا، فالشبهة عبارة عن تشبيه الباطل بالحق، فإذا شبّه الباطل بالحق من جهة أن الباطل له دليل وله برهان صارت هٰذه المسألة -إذا عُورض بها الحق- صارت شبهة.

والشبهة والمُشَبَّهة هي المسائل المعضلة أو المشكلة التي تلتبس علىٰ الناس كما جاء في بعض ألفاظ حديث النعمان بن بشير المشهور قال: «**الْحَلاَلُ بَيِّنٌ، والْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشَبَّهات**» أو «**مُشْتَبِهَاتٌ**» سميت مشبَّهة ومشتبهة لأنّ الأمر فيها يشتبه علىٰ الناظر فيه، وهكذا الشبهة تُلقىٰ؛ يلقيها الشيطان أو يلقيها أعوانه أو تأتي في الذهن فيشتبه معها الحق ويشتبه الباطل معها بالحق، فيصبح الأمر غير واضح بها.

ولا شك أنّ إزالة الشبهات وكشف الشبهات من أصول هٰذا الدين؛ لأن الله جل وعلا رد علىٰ المشركين في القرآن ودحض شبهاتِهم وأقوالَهم، قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾[الشورىٰ:١٦]، وكل من يجادل بالباطل له حجة وله علم لكن حجته داحضة، وكون الحجة تُدحض هٰذا أصل في إزالة الشبه في الدين، فإزالة الشبه التي شبه بها أعداء الملة وأعداء الدين فرض من الفروض في هٰذه الشريعة وواجب من الواجبات، لا بد أن يوجد من يقوم به وإلا لالتبس الباطل بالحق، وصار هٰذا يُشبه هٰذا وضل الناس.

وقد ذكر إمام هٰذه الدعوة في مسائل «كتاب التوحيد» حينما عرض لحديث إرسال معاذ بن جبل إلىٰ اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْما أَهْل كِتَابٍ فليكن أول ما تدعوهم إليه شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وأنّ محمداً رسولُ اللّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ**» الحديث، قال في المسائل ما حاصله: في هٰذا ردّ الشبه عن الدين؛ لأنه مهَّد له عليه الصلاة والسلام بقوله: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْما أَهْل كِتَابٍ**»، وكونهم من أهل الكتاب هٰذا يعني أن يستعد لمناظرتهم وللحجاج معهم، ثم قال: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ**»، فنَفْهَم من قوله: «**أَطَاعُوا لِذَلِكَ**» أنه سيكون بينه وبينهم حجاج ونقاش وأخذ ورد ولإزالة للشبه التي قد تكون عندهم في رد التوحيد ورد رسالة النبي عليه الصلاة والسلام، فقوله: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ**» فيه رد الشبه وأنها من وظائف العلماء الدعاة، ثم قال: «**فَأَعْلِمْهُمْ أَنّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ**» وهٰذا كله دليل علىٰ ما ذكر.

المقصود أن إزالة الشبه عن الدين فرض من الفرائض قام به أهل العلم، وصُنِّفت فيه المصنفات في القرون التي شاع فيها التصنيف في القرن الثاني والثالث وما بعده إلىٰ زماننا هٰذا.

وكشفُ الشبه يكون عن طريقين:

- الطريق الأول: طريق عقلي.
- والطريق الثاني: الطريق الشَّرعي السمعي.

أما الأول وهو الطريق العقلي: فهٰذا قد يكون بإيجاد البراهين العقلية البحتة التي تُبطل شبه المشبهين، وقد يكون بإيجاد الأمثلة العُرفية التي تُضعف حجة الخصم، وهٰذا وهٰذا موجودٌ في القرآن.

والقسم الثاني الأدلة أو الطريق الشرعي السمعي: بأن يُكشف ما شبه به الخصوم بأن تُزال الشبه وتقام الحجة بالأدلة الشرعية، وفي الكتاب والسنة من إقامة الأدلة في مسائل العلم خاصةً التوحيد ما يُغني عن غيرها؛ لكن طالب العلم قد يحتاج إلىٰ بعض البراهين العقلية، لذلك جاءت في القرآن آياتٌ كثيرة فيها إقامة البرهان العقلي في التوحيد كقوله جل وعلا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:٢٢]، وكقوله جل وعلا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾[الإسراء]، فهٰذا من جعْل الحجة العقلية.

وقوله جل وعلا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فيه دِلالة بينة أنّ وجود إله يعبد مع الله جل وعلا لو كان موجودا لفسدت السَّمٰوات والأرض؛ لأنه لا بد أن يأتي هٰذا بما يريد وأن يأتي الآخر بما يريد، ومعنىٰ ذلك أنه لن يكون هٰذا الملكوت علىٰ هٰذا الانتظام لا بد من المغالبة، ولهٰذا قال في آية الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ لابد أن يكون ثَم مغالبة حتىٰ يستقيم الأمر، فلو كان ثم معبود مع الله جل وعلا بحق لكان لا بد من المغالبة، وإذا انتفت المغالبة وكان هٰذا الكون والمكلوت يمشي علىٰ منوال واحد وبإرادة واحدة دلّ ذلك البرهان العقلي؛ البرهان المحسوس المضبوط علىٰ أن المعبود بحق واحد وهو الله جل جلاله.

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في أول رسالته: (بسم الله الرَّحمٰن الرحيم) وتفسير البسملة وما فيها من العلم معروف يؤخذ من الشروح الكثيرة لكتب أهل العلم.

قال بعدها: (اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ) هٰذه البداية تكثر في كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ وفي كتب كثير من أهل العلم.

فقد قال العلماء: فيها من الفائدة أنّ هٰذا العلم أي علم الشريعة مبني علىٰ التراحم، فأعظم رحمة تسديها للناس أن تنشر بينهم العلم، فإذا علّمتهم العلم فهي أعظم رحمة ترحمهم بها، ولهٰذا كان محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام مبعوثا رحمة للعالمين كما قال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[الأنبياء]، والشريعة كلها عقيدة وأحكاما، خبرا وأمرا ونهيا رحمة، وبعثة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام رحمة، وكل تشريع رحمة، وكل إخبار اعتقاده رحمة بالعبد؛ لأنه إن لم يعتقد الخبر فإنه سيضل وذاك هلاك، وإنقاذ الناس من الهلكة رحمة بهم، وإن لم يتبع الأمر والنهي ولم يفعل ما أمر به وينتهي عما نُهي عنه فإنه قد سعىٰ في فساد نفسه وما لا يُحمد له وفي ظلم نفسه، فتخليصه منه رحمة، فمبنىٰ العلم علىٰ التراحم، المعلم ينشر العلم رحمة مع أمور أُخر، والمتعلم يتلقىٰ العلم وهو مرحوم به أو وهو مرحوم بنشر هٰذا العلم.

ولهٰذا قال العلماء إنّ الحديث الذي اختاره طائفة من أهل العلم ليكون الحديث المسلسل بالأولية هو حديث «**الراحمون يرحمهم الرَّحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» وهٰذا هو الحديث المعروف في رواية الحديث وعند المهتمين بالإسناد بالحديث المسلسل بالأولية؛ لأنّ الرواة

فيه يقول كل واحد منهم: وهٰذا أول حديث سمعته. يعني من شيخه، فالشيخ أول ما يقرئ الأحاديث هٰذا الحديث «**الراحمون يرحمهم الرَّحمٰن**»، ذكر طائفة من أهل العلم منهم الذهبي وغيره أن سبب تسلسل هٰذا الحديث بالأولية أنّ هٰذا العلم -علم الحديث وعلم السنة بل علم الشريعة جميعا- مبناه علىٰ التراحم، فيعلم المعلم هٰذا الحديث أولا «**الراحمون يرحمهم الرَّحمٰن**»، ويكون أول ما يسديه إلىٰ التلميذ أن يعلمه الرحمة والتراحم؛ لأنه لا يكون العلم إلا عند رحيم، أما من لم يكن رحيما بالخلق فلا يكون العلم مستقِرا في قلبه.

يكون أكثر استقرارا إذا كان أرحم بعباد الله جل وعلا، وكلما ازدادت الرحمة في قلبه كلما زاد العلم ثباتا في صدره؛ لأن الرحمة مأمور بها «**ارحموا من في الأرض**»، والله جل وعلا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾[النساء]، ومن التّثبيت التثبيت في العلم، فهٰذا من رحمة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بالمسلمين حيث يدعو لهم بهٰذه الدعوة.

قال: (اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ الله سبحانه بِالعِبَادَةِ) التوحيد مصدر وحّد يُوحد توحيدا، وقد جاء في السنة لفظ (التوحيد) وقد جاء أيضا لفظ (وحّد يوحد)، فمادة هٰذه الكلمة جاءت في السنة.

خلافا لمن زعم أن هٰذا اللفظ إنما اهتم به شيخ الإسلام ابن تيمية ومن تابعه، هٰذا غلط كبير؛ لأن هٰذا اللفظ قد جاء في السنة في أحاديث كثيرة.

وقد جاء في مثل ما رواه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه» في كتاب الحج أن النبي عليه الصلاة والسلام (**أهلَّ بالتوحيد**).

وثبت أيضا في مسلم وفي غيره أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ خَمْسَةٍ. عَلَىٰ أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ**».

وفي حديث جبريل أيضا المعروف قال[1] عليه الصلاة والسلام: «**الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمّدا رَسُولُ اللّهِ**»، في رواية «**الإِسْلاَمُ أَنْ تُوَحّدَ اللهُ**».

والنبي عليه الصلاة والسلام كان يُهِلُّ بالتوحيد؛ يعني يقول: لا إله إلا الله، وكان يهل في الحج بالتوحيد؛ بمعنىٰ يقول: لبيك اللّهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك. لأن نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله جل وعلا هو التوحيد.

المقصود أن هٰذه الكلمة (التوحيد) جاءت في السنة في أحاديث كثيرة وكذلك لفظ (وحَّد) فهي كلمة مستعملة ومشهورة ومن ألفاظ حديث معاذ المعروف «**فليكن أول ما تدعوهم إليه إلىٰ أن يوحِّدوا الله**» والبخاري بوّب أو جعل من كتبه في صحيحه كتاب التوحيد.

فالمقصود من هٰذا بيان أن هٰذه اللفظة كثيرة في السنة، وهي وإنْ لم ترد في القرآن لكن جاءت في السنة وأهل العلم من أهل السنة اعتمدوها وذكروها وصنفوا فيها كتبا.

---

(١) انتهىٰ الشريط الأول.

فاهتمام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بهٰذه الكلمة هو اهتمامٌ بأصل الدين وليست كلمة محدثة خلافا لمن زعم ذلك بجهله.

قال: (التَّوحِيد هُوَ إِفْرَادُ الله سبحانه بِالعِبَادَةِ)، (**التوحيد**) يُعرف بعدة تعريفات:

أما من جهة **اللغة** فهو جعل الشيء واحدا، وحَّد توحيدا؛ يعني جعله واحدا، فوحّد المتوجه إليه في العبادة توحيدا؛ يعني جعل المعبود بحق واحدا.

و(التَّوحِيد) عرّفه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا بأنه (هُوَ إِفْرَادُ الله سبحانه بِالعِبَادَةِ) إفراد الله؛ يعني أن يكون التوجه بالعبادة لله وحده هو فردٌ في ذلك، فلا يجعل من دون الله إلها، ولا يجعل مع الله جل وعلا إلها.

قال (إِفْرَادُ الله سبحانه بِالعِبَادَةِ) و(سبحان) تنزيه كما هو معلوم، (بِالعِبَادَةِ) هٰذه العبادة ما هي؟

العبادة في اللغة: خضوع وتذلل معه حبٌّ عن طواعية ورغب ورهب وحسن ظن.. وما أشبه ذلك من أعمال القلوب.

وأصلها الذّل؛ ذلّل الشيء يعني جعله متطامنا، جعله ذليلا، جعله غير وعِرٍ غير مستكبر، فيكون هٰذا في الناس، ويكون في الطريق ومنه سمي العبد الرقيق عبدا؛ لأنه جعل ذليلا غير متكبر متطامن لسيده، وقيل أيضا للطريق معبد لأنه ذُلل للسير كما قال طَرَفة:

تُبَارِي عِتاقًا ناجِياتٍ وأَتْبَعَتْ وَضِيفًا وَضِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

وقوله أيضا في البعير:

إِلَىٰ أَنْ تحَامَتْنِي العَشِيرةُ كُلُّهَا وأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ

إلىٰ آخر شواهد هٰذه المادة.

أما العبادة في الشرع فالعلماء عرّفوها بعدة تعريفات نختار منها في هٰذا المقام ثلاثة:

- الأول: أن العبادة هي ما طُلب فعله في الشرع ورُتب الثواب علىٰ ذلك، وهٰذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية لما تكلم عن الوضوء، فإذا كان الشيء طلب فعله في الشرع ولم يكن مطلوبا قبل ذلك ورتِّب علىٰ ذلك الفعل الثواب فهٰذا الفعل عبادة.

- التعريف الثاني: أيضا كلي أيضا ذكره شيخ الإسلام في أول رسالة «العبودية» هي أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

- وعرّفه أيضا طائفة من العلماء ومنهم الأصوليون بأن العبادة هي ما أمر به من غير اطّراد عرفي ولا اقتضاء عقلي.[1]

---

(١) قال البهوتي في «كشف القناع»: قال الفخر إسماعيل وأبو البقاء: العبادة ما أمر به شرعا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي. كتاب الصلاة باب صلاة التطوع.

فنخلص من هٰذا إلىٰ أن العبادة شيء جاء بالشرع لم يكن قبل ذلك، لم يكن قبل ذلك ليس من جهة الفعل والحصول، ولكن من جهة كونه مأمورا به لهؤلاء الناس المعينين، فجاء الشرع بالأمر بأشياء كانت موجودة عند العرب، ولكن كانوا يفعلونها من غير أمر خاص شرعي بذلك، وإنما ورثوها هكذا فلما أمر بها الشرع ورتب عليها الثواب كانت مما يحبه الله ويرضاه، وكانت مأمور بها من غير اقتضاء عقلي لها ولا اطّراد عرفي بها، وإنما كانت باطّراد أمر الشارع بها، فخرجت عن كون مقتضىٰ بها جاءت عرفا فقط.

لهٰذا الأقوال هٰذه الثلاثة لتعريف العبادة تلتقي ولا تختلف.

فإفراد الله سبحانه بالعبادة معناه أن يفرد الله سبحانه بكل ما أمر به الشرع؛ بكل ما أمر به الشرع من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فيدخل في ذلك أعمال القلوب مثل الإخلاص والرغب والرهب والخوف والتوكل والإنابة والمحبة والرجاء والاستعاذة؛ استعاذة القلب إلىٰ آخره، ويدخل فيه أيضا الأفعال الظاهرة مثل الدعاء وأنواعه الاستعانة والاستغاثة والاستسقاء والاستعاذة الظاهرة إلىٰ غير ذلك، ويدخل فيها الذبح والنذر والصلاة والزكاة والدعاء والحج والعمرة والصِّلة؛ صلة الرحم وغير ذلك، فالعبادة اسم يعم هٰذا جميعا، فكما أنه لا يصلي المصلي إلا لله كذلك لا يستغيث إلا بالله فيما لا يقدر عليه المخلوق، وهكذا في مظاهرها كما أُوضح ذلك مفصلا في «كتاب التوحيد» وفي «ثلاثة الأصول».

قال: (وَ هُوَ -يعني التوحيد- دِينُ الرُّسُلِ الَّذِين أَرْسَلَهُمُ اللهُ بِهِ إِلى عِبَادِهِ.)

(وَهُوَ دِينُ الرُّسُلِ) يعني جميعا، فالرسل جميعا أرسلوا بالتوحيد وهو إفراد الله بالعبادة، فلم ترسل الرسل أصلا بالشرائع، لم ترسل الرسل أصلا ببيان ما يجب من الأعمال من الذي هو دون التوحيد، أو ما يحرّم، إنما أرسلت لتوحيد الله جل وعلا؛ لأن توحيد الله جل وعلا هو العلة المطلوبة من خلق الجن والإنس، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات]؛ يعني إلا ليوحدونِ، فالعلة المطلوبة من خلقهم أنهم يوحدون الله جل وعلا، لهٰذا أرسلت الرسل بذلك.

هٰذا التوحيد مفطور عليه العباد بالميثاق قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[الأعراف:١٧٢]، وهٰذا الذي أخذ عليهم هو التوحيد وهو الفطرة، فأُخِذ علىٰ الناس جميعا هٰذا الميثاق وهو توحيد الله جل وعلا، ولكن هٰذا الميثاق خرجوا عليه وهم في ظهور آبائهم أُخذ وعرفوا ذلك وشهدوا به، ثم خرجوا علىٰ هٰذا التوحيد خرجوا علىٰ الفطرة، خرجوا وهم يوحدون الله جل وعلا؛ لكن تجتالهم الشياطين عن دينهم كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق علىٰ صحته: «**كلّ مولودٍ يولَدُ علىٰ الفِطرةِ، فأبَواهُ يُهوّدانِهِ أو يُنصّرانِه أو يُمجّسانِه، كما تخرجُ البهيمةُ جمعاء هل تحسون فيها من جَدْعاءَ**»؟ يعني أن البهيمة تخرج سليمة، ثم بعد ذلك أهلها يقطعون شيئا من أذنها أو شيئا من بدنها إلىٰ آخره، الكمال يخرج المولود عليه، من جهة التوحيد يعني علىٰ الفطرة، ثم تتغير هٰذه الفطرة.

معلوم أن ذلك الميثاق الأول لا يُذكر، وأن دلائل إقامة الحجة بذلك الميثاق موجودة في الآفاق وفي الأنفس، والرسل جاءت لإقرار ذلك ولجعل الناس يرجعون إلىٰ هٰذا الأصل الذي وُلدوا عليه وهو توحيد الله جل وعلا ثم إضافة بعض الشرائع التي تختلف من رسول إلىٰ رسول.

المقصود من ذلك أن دين الرسل جميعا هو التوحيد.

والرسل جمع رسول وهو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه إلىٰ قوم مخالفين له.

أما إذا كانوا موافقين فيكون ذلك نبي من الأنبياء، كأنبياء بني إسرائيل ونحو ذلك.

فالرسل الذين بُعثوا إلىٰ قوم مخالفين هم علىٰ التوحيد أمروا بالتوحيد ودعوا إليه، قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، وفي سورة الأعراف في ذِكر نوح عليه السلام وذِكر هود وذِكر صالح وذِكر شعيب وذِكر موسىٰ عليه السلام، كلهم يدعون إلىٰ توحيد الله جل وعلا: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: ٥٩].

إذا كان كذلك فإن الدعوة تكون إلىٰ هٰذا الأصل،الدعوة تكون إلىٰ توحيد الله لأن به صلاح القلوب وصلاح الأعمال.

قال: (وَهُوَ دِينُ الرُّسُلِ الَّذِين أَرْسَلَهُمُ اللهُ بِهِ إِلى عِبَادِهِ.)، (بِهِ) يعني بالتوحيد إلىٰ عباده، فما هو دين الرسل الذي أجمعوا عليه، اتفقوا عليه كل واحد بُعث به؟ هو توحيد الله جل وعلا وهو إفراد الله سبحانه بالعبادة.

لهٰذا نعلم أن كل من عبد غير الله جل وعلا فهو مخالف لكل رسول، ومن عبد غير الله بأي نوع من أنواع العبادة فإنه لم يوحد إنه مشرك وإنه مكذب بجميع المرسلين، قال جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[الشعراء]، فمن لم يوحد الله جل وعلا فقد كذب بالمرسلين جميعا؛ لأن الرسل جميعا أمروا بالتوحيد، فإذا أشرك المشرك فلا يحتج يقول: أنا علىٰ دين موسىٰ أو علىٰ دين عيسىٰ، نقول هو مكّذب بجميع الرسل وخارج عن دين جميع الرسل.

قال: (فَأَوَّلُهُمْ نَوحٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ) نوح هو أول الرسل، وهو من أولي العزم من الرسل، وهو عليه السلام الذي جَعل الله جل وعلا ذريته هم الباقين في الأرض، أما آدم فإنه نبيٌّ مكلم وليس برسول، كما جاء في بعض الأحاديث أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قال: «**آدم نبي مكلم**».

نوح عليه السلام بُعث إلىٰ قوم أشركوا بالله جل وعلا وشِركهم كان في الصالحين.

قال: (أَرْسَلَهُ اللهُ إِلى قَوْمِهِ لَـمَّا غَلَوْا في الصَّالِحِينَ) الغلو هو مجاوزة الحد، غلا في الشيء جاوز الحد فيه، وتأليه البشر مجاوزة للحد، وهؤلاء الصالحون أوّلهم ودّ، وودّ هٰذا كان من عباد الله الصالحين، وهو أول من أُشرك به علىٰ الأرض لما مات صوَّروا صورته كما يأتي في حديث ابن عباس، فقوم نوح هم تتابعوا من ذرية آدم وذرية آدم علىٰ التوحيد حتىٰ أتىٰ هؤلاء الصالحون ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر كانوا قوما صالحين، فهنا شاع في الناس الرغبة في الدنيا والبعد عن تذكر الآخرة، فكانوا إذا أرادوا أن

يتشجعوا في العبادة ذهبوا إلىٰ هؤلاء؛ إلىٰ قبورهم إلىٰ ود وإلىٰ سواع وإلىٰ يغوث وإلىٰ يعوق وإلىٰ نسر، فنظروا في قبورهم وبكوا عندها، فتشجعوا في العبادة ورجعوا، فجاء الشيطان فتكلم عند قبرهم قال: ألا تصنعون أو ألا أصنع لكم صورة تتذكرون بها ودّا وتتذكرون بها سواعا. فصنع لهم صورة علىٰ هيئته، فجعلوها علىٰ قبورهم وثنا وصنما، ثم بعد ذلك يعني هم حينما جُعل ذلك أولا ليس معبودا ولكن للتذكر ينظرونه فيتذكرونه وأعمارهم كانت طويلة، ثم بعد ذلك قال: ألا تجعلون من كل واحد صورة في بيت كل واحد منكم حتىٰ يتذكر، ثم نقلهم بعد ذلك إلىٰ أن يصحبوه في السفر إلىٰ آخره، شاع في ذلك لأجل التذكر لأجل الحث علىٰ العبادة، ولم يكن أول ذلك الجيل مشركا، فيما بعدهم ذهب ذلك العلم، وقالوا: ما اتخذ آباؤنا هٰذه الصور إلا لأنها آلهة إلا لأنها معظمة، فتوجهوا إليها بطلب التوسط، قالوا: هؤلاء لهم مكانة عند الله؛ لأنهم صالحون، فنتوسط بهم فيما نريد فصار شرك قوم نوح من جهة التوسط بالأرواح؛ أرواح صالحي بني آدم.

ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ذكرهم الله جل وعلا في القرآن في سورة نوح حيث قال جل وعلا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾[نوح]، قال: العلماء: في قوله: ﴿تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ﴾ فيها أن ودّ هو الأول، وسواع هو الثاني، ويغوث هو الثالث، وفيها أيضا تنبيه علىٰ أن هٰذه الآلهة متفاضلة عندهم؛ بأنه أتىٰ في الثلاث الأول بحرف ﴿لَا﴾ وفي الآخرة بلا حرف (لَا) فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ فلم يأتِ بحرف ﴿لَا﴾ لأجل أن يفاضلوا بين أولئك وبين هٰذه، فهٰذه الآلهة كانت متفاضلة عندهم، وهٰذا التفاضل عندهم الذي يُشعر به اللفظ كما ذكره طائفة من المفسرين، هٰذا التفاضل إنما بتفاضل مصلحتهم من هٰذه الآلهة، والتوجه بها.

وهٰذا هو الموجود في هٰذا الزمن وفي زمن الشيخ وفي زمن انتشار الشركيات، فإنّ عباد القبور عباد الأولياء أولئك ليسوا متساوين فبعضهم أقطاب وبعضهم أوتاد وبعضهم غوث وهكذا.

فإذن التفاضل من جهة الروحانيات من جهة التوسط كان موجودا في زمن نوح عليه السلام، فصرنا علىٰ أنّ ما كان في زمن نوح عليه السلام أنّ هؤلاء صالحون، وأنهم لم يُعبدوا باتِّخاذ قبورهم أوثانا من أول الأمر، وإنما عبدوا بعد زمن، لما نُسي أول الأمر من اتخاذ صورهم للتنشيط في العبادة وعُبدوا بعد ذلك.

ففيه أن الشيطان أتاهم بأن لا تسد الذرائع في هٰذا الباب، فجاء الأمر شيئا فشيئا حتىٰ عبدوا تلك الآلهة.

وفيه أن هؤلاء متفاضلون في الصلاح عندهم، وفيما ذكرنا أيضا أن تفاضلهم إنما هو من جهة أثر توسطهم بهٰذه الآلهة علىٰ ما يريدون من إنجاح حوائجهم.

ولهٰذا ذكر البخاري في كتاب التفسير في تفسير سورة نوح قال: باب ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وذكر الحديث المعروف حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أنه قال في هٰذه الآية: هٰذه أسماء

رجال صالحين من قوم نوح. وهٰذا القدر -وهو أنهم أسماء رجال صالحين- هو الذي يعارض فيه كثير من المعارضين اليوم، ويقولون إن هٰذه الأسماء أن تعدّ أسماء رجال صالحين لم تأتِ إلا في هٰذا الحديث عن ابن عباس.

وهٰذا الحديث رواه ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وابن جريج له تفسير معروف، وفي تفسيره ذكر التصريح بأن عطاء هٰذا هو عطاء الخُرساني، كذلك ذكره عبد الرزاق في «تفسيره» وهو مطبوع -طُبع مؤخرا-، قال: عن ابن جريج عن عطاء الخرساني عن ابن عباس. والعلماء يقولون -علماء الجرح والتعديل-: إن عطاء الخُرساني لم يسمع عن ابن عباس. لهٰذا قال أولئك: هٰذه الرواية ضعيفة وليست بصحيحة وإن رواها البخاري؟

والجواب عن ذلك أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حينما ذكر أنها أسماء رجال صالحين جعلها البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ -يعني جعل تلك الرواية- جعل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ تلك الرواية أصل في تفسير الآية، ورواها بإسناده المتصل إلىٰ ابن عباس، وكون عطاء أتىٰ عند البخاري بلا نسبة، لا يعني أنه عند البخاري عطاء الخُرساني، ودلّلوا علىٰ ذلك بأن التفريق في روايات ابن جريج عن عطاء بأن منها ما هو عن الخرساني خاصة بالتفسير إنما هو عن علي بن المديني، وعلي بن المديني معروف بأنه إمام في العلل وله كتاب في العلل وكتبه مشهورة في ذلك والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تلميذه، فلا يخفىٰ عليه تعليل علي ابن المديني لهٰذه الرواية -أنا أُفَصِّل هٰذا لأن الدعاة إلىٰ عبادة القبور أو إلىٰ أن التوسط بالصالحين ليس هو شرك المشركين؛ الدعاة قالوا: عمدتكم في ذلك رواية ابن عباس، ورواية ابن عباس ضعيفة، ولو رواها البخاري في «صحيحه».

فهٰذا رد لهٰذه الشبهة- نقول: البخاري قال عن ابن جريج قال: قال عطاء عن ابن عباس. ومن المتقرر في علم الرجال أن ابن جريج إذا قال: قال عطاء. وهو يعني ابن جريج ممن عُرف بالتدليس، فإن قوله قال عطاء محمول علىٰ السماع، وسماعه إنما هو من عطاء بن أبي رباح وليس من عطاء الخرساني، فنستدل بذلك علىٰ أن هٰذه الرواية عند البخاري إنما هي عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس، فإسنادها متصل في غاية الصحة.

وابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ حينما عرض لهٰذه المسألة قال: وهي عندي -يعني هٰذه المسألة- عن عطاء الخرساني وعن عطاء ابن أبي رباح جميعا؛ لأن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ مشترط في «صحيحه» أن لا يروي الحديث إلا إذا كان متصلا، وهو لا يخفىٰ عليه أن ابن جريج يروي عن عطاء الخرساني بانقطاع، وأن عطاء الخرساني راويته عن ابن عباس ضعيفة لا يخفىٰ عنه ذلك؛ لأنه من مشاهير العلم، ولأنه لم يروِ بهٰذه الترجمة مما يُظن أنه عن عطاء الخرساني لم يروِ إلا حديثين، فهو رواها مسندة متصلة، فمن نازع في صحتها ينازع البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في تصحيحه لها هٰذا واحد.

الثاني أن عطاء في الرواية هو عطاء ابن أبي رباح ولو كان رُوي في تفسير عبد الرزاق وتفسير ابن جريج التصريح بأنه عطاء الخرساني فإنّ ابن جريج قد يسمع من هٰذا وهٰذا، يعني قد يأخذ من هٰذا وهٰذا؛ قد يأخذ من عطاء بن أبي رباح، وقد يأخذ بواسطة عن عطاء الخرساني فهٰذا محتمل.

وتغليط البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في تصحيحه للحديث هٰذا غير وارد.

الثالث أن الذين ذكروا هٰذه العلة ليسوا من المتقدمين من حفاظ الأحاديث، وإنما هم من المتأخرين، والمتقدمون من أهل الحديث أدرىٰ بالبيت؛ لأنّ فهمهم بالعلل أعظم من فهم من بعدهم.

فنخلص من ذلك إلىٰ أن رواية ابن عباس هٰذه هي الأصل في هٰذا الباب، وأنّ ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر أنها أسماء رجال صالحين صارت في العرب، وأن أولئك لم يعبدوها أول الأمر وإنما آتاهم الشيطان فمثّل لهم -كما ذكرتُ لكم- مثّل لهم صورا فلما تمسّخ العلم وفي رواية فلما نُسي العلم عبدت يعني لما نسي التوحيد وتمسخ العلم ورثها أناس لم يعرفوا حقيقة الأمر فعبدت، يدل علىٰ ذلك أن ودّا وسواع ويغوث ويعوق ونسرا هٰذه صارت في العرب معروفة وأبيات الشعر التي حفظت في ذلك عن العرب في ذكر هٰذه الأصنام مشهورة.

الله جل وعلا ذكرها عن قوم نوح وهي موجودة العرب بهٰذه الأسماء والأشعار بها محفوظة، ويؤيد ذلك أيضا أنها في العرب أن العرب فيهم التعبيد لهٰذه الآلهة، فيهم من اسمه عبد ودّ، وفيهم من اسمه عبد يغوث، وفيهم من اسمه عبد نسر وهكذا، فالتعبيد لها يدل علىٰ أنها موجودة في العرب، وهي موجودة في قوم نوح بنص القرآن، فلما كان كذلك صارت هٰذه الرواية متّفقة مع ظاهر القرآن، ومتفقة مع واقع العرب المعروف الذي حفظ، فمن طعن فيها فإنما هو من جهة عدم استيعابه للمسألة.

ذكرتُ لكم أنّ عبادة أولئك كانت من جهة الأرواح، وكل شرك في العالم كان راجعا إلىٰ أحد نوعين لا ثالث لهما: الشرك بالله:

الأول: راجع إلىٰ أرواح الناس؛ أرواح الصالحين.

والثاني: راجع إلىٰ أرواح الكواكب.

فالشرك بأرواح الصالحين كان في قوم نوح.

والشرك بأرواح الكواكب كان في قوم إبراهيم، وهل الكوكب له روح؟ الجواب: لا، ولكن جعلوا لكل كوكب صورة وصنما صوروا فيه الكوكب، فلما كان كذلك، زعموا أن روحانية الكوكب وروح الكوكب تحل فيه فتتقبل مما يأتي لها ويطلب فترفع الحوائج إلىٰ الكوكب، وعند هؤلاء الصابئة أن الكواكب تُسَيِّر العالم، وأن كل كوكب له أثر في العالم، والصابئة الذين هم قوم إبراهيم كان شركهم من جهة الكواكب كما هو معروف، قال جل وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا ﴾[الأنعام] الآيات، فشركهم كان من جهة الكواكب.

لم أشركوا بالكواكب؟ لأنهم لما وضعوا الأوثان لهٰذه الكواكب جاءت الشياطين فتكلمت عند صورة الوثن، عند الوثن، عند الصنم، فلما تكلمت طلبوا منها أشياء فتحقق لهم ذلك، فظنوا أن الكواكب مسيِّرة لأحداث هٰذا العالم.

فإذن نخلص من ذلك إلىٰ أن الشرك وقع من جهة الشياطين في الجهتين:

- شياطين تكلّمت بلسان الصالحين، تكلمت علىٰ أنها روح الصالح، فطُلب منها وأجابت وعمِلت أشياء.
- وشياطين تكلّمت علىٰ لسان -كما يزعم أصحابه- الكوكب.

وكل شرك متفرع علىٰ أحد هذين النوعين؛ إما شرك بالعلويات أو شرك بالسفليات.

حقيقة الأمر أن الشياطين حينما تقول ذلك هي عبادة الجن، حينما يُطلب منها فإن المعبود هو الجني وليس هو الإنسي.

قال: (وَآخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُوَرَ هَؤُلاَءِ الصَّالِحِينَ)، (وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ) بنفسه أو بمن أَرسل؟ محمد عليه الصلاة والسلام لما دخل مكة عام الفتح دخل وكان حول الفتح أصنام كثيرة فجعل يمكُتُهم بعصاه عليه الصلاة والسلام ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء] وكان من الأصنام إساف ونائلة، صنم إساف ونائلة وكانت موجودة بجنب الكعبة، ومنها هبل، وكان هبل من الأصنام التي في داخل الكعبة؛ لأن الكعبة كانت بداخلها صور وأصنام، وكان أيضا بقربها يعني علىٰ حافة الكعبة كانت ثَم أصنام وهناك أيضا أصنام بعيدة حول المطاف، فالنبي عليه الصلاة والسلام كسر هٰذه جميعا.

من العجائب في ذلك أن المؤرخين اتفقوا علىٰ أن إساف ونائلة؛ إساف رجل ونائلة امرأة، وأن إساف كان يتعشق نائلة وأنهما قدما حاجين وأنه لم يتمكن منها إلا في غفلة من الناس أتاها في الكعبة -والعياذ بالله-، قال المؤرخون: فمُسخا حجرين في داخل الكعبة، فلما نظر الناس إليهما عرفوا أن هٰذه صورة إساف وصوره نائلة في الكعبة، فعلم أنهما أحدثا حدثا، فأخرج الناس الحجرين إلىٰ خارج الكعبة ليعتبر الناس بحال من عصىٰ في الحرم، يكون ذلك أبلغ في إبعاده، أتىٰ الزمان حتىٰ عبد إساف وعبدت نائلة.

هبل كان في داخل الكعبة وكان هو أعظم الأصنام والصور التي في داخلها وهكذا.

أما ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر فهٰذه لم تكن من الأصنام التي حول الكعبة وكانت متفرقة في العرب فقوله: (وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُوَرَ هَؤُلاَءِ الصَّالِحِينَ) يعني بمن أرسل، فإنه لما انتشر الإسلام فكل قوم فيهم هٰذا الوثن أو هٰذا الصنم كسره أصحابه بأمر النبي عليه الصلاة والسلام.

وقولنا بأمر النبي ليس أمرا خاصا بهٰذا الصنم ولكن أمرا عاما بكسر الأصنام والأوثان.

ومن أصنامهم اللاتّ والعزىٰ ومناة كما هو معروف.

تعبير الشيخ بقوله: (صُوَرَ هَؤُلاَءِ الصَّالِحِينَ) هٰذا مقصود؛ لأن أولئك جعلوا الصورة، وهل جعلهم الصورة لقصدها أم لأجل أنها توصل إلىٰ صاحبها؟

معلوم أنّ المشركين ليسوا قاصدين للصور من حيث هي، بل يقصد الصنم من حيث هو، وإنما عندهم الصنم وسيلة إلىٰ روح صاحبه، الوثن وسيلة إلىٰ ما يحل بالبقعة أو يحل بالشيء من أرواح.

فإذن هم قصْدهم الأرواح التي تصعد إلىٰ الملأ الأعلىٰ فتوصل طلباتهم وتوصل حوائجهم وما يريدون إلىٰ الله جل وعلا، فيستجيب الله جل وعلا بهٰذه الوساطة، هٰذه خلاصة شرك المشركين.

وأولئك الذين أشركوا هٰذا الشرك لم يكونوا بعيدين عن التعبد، بل كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا قال: (أَرْسَلَهُ اللهُ إِلى أُنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ) نعم كان أهل الجاهلية كانوا يتعبّدون، كان منهم أهل الصيام، كان منهم أهل الصلاة، ومنهم أهل الدعاء، ومنهم أهل الحج، منهم أهل الزكاة، منهم أهل الصدقة، منهم أهل الصلة، منهم أهل الذبح، ومنهم أهل التقرب إلىٰ الله بالطواف والتحنث والاعتكاف إلىٰ آخره والطهارة الكبرىٰ وما أشبه ذلك، فأولئك لم يكونوا يقرّون بأن الله جل وعلا هو الخالق وحده وأفراد الربوبية فحسب، بل كانوا مع ذلك يتعبّدون لهم صلاة ولهم زكاة ولهم حج ولهم صيام، وهٰذا ذكره الشيخ بعد ذلك بقوله: (وَيَحُجُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ).

أما الطهارة فقد ذكر من صنَّفَ في أديان العرب أنّ العرب كانت عندهم طهارة من الحدث، فكانوا يتطهرون من الجنابة، وإذا أجنب المرء بمعنىٰ أنزل الماء، فإنه يبعد عن مواقع العبادة ولهٰذا سمّوه جنبا، سموه جنبا أي بعيدا ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾[النساء:٣٦] يعني البعيد، فسموا من أخرج الماء يعني من أنزل، سموه جنبا لأنهم كانوا يأمرون بالابتعاد عن الكعبة، بالابتعاد عن مواطن العبادة حتىٰ يتطهّر، وتطهّره من الجنابة شائع معروف، أما التطهر من الحدث الأصغر فهٰذا إنما عند طائفة قليلة منهم، حتىٰ النساء كن يغتسلن من الحيض، وهٰذا معروف عنهم في عدة أحوال وعدة أبيات، ومنها قصة امرأة كانت مع زوجها في سفر وكان معهما ماء قليل، فلما كانت في السفر انقطع عنها الحيض فأرادت أن تغتسل، فأخذت الماء فاغتسلت به وكان قليلا فلم يبلغ أن يعممها وبقيا عطاشا ليس معهما ماء، قيل إنهما هلك في ذلك، فضرب بهما مثل في هٰذا، وقد قال في ذلك الفرزدق في بعض أبيات نسبت إليه، قال – يذم رجلا:

وكنت كذات الحيض لم تُبقِ ماءها ... ولا هي من ماء العُذابة طاهر

فكان العرب يعتنون بمسألة الطهارة؛ طهارة الجنب وطهارة الحائض، فهٰذا النوع تعبّد منهم بذلك.

كذلك الصيام، كان منهم من يصوم وصيامهم مختلف منهم من يصوم يوما، كما كان أهل الجاهلية يصومون عاشوراء، كما جاء في الصحيح «**إن عاشوراء يوم كانت تصومه العرب في الجاهلية**» وكان لهم صيام من الفجر إلىٰ غروب الشمس، أو من طلوع الشمس إلىٰ غروبها، ومنهم من كان يصوم أكثر من ذلك.

هٰذه كلها ميراث مما ورثوه من الأديان الصحيحة قبلهم.

وكان منهم أيضا من يصلي وصلاته تكون بركوع وذكر ودعاء ويسمونها صلاة، معروفة عندهم في ذلك، لكن هٰذه الهيئة والسجود لم يكن عندهم في ذلك.

كذلك كانوا يعتكفون تعبدا، ومنهم حديث عمر المعروف: إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام. فقال له النبي عليه الصلاة والسلام «**أَوفِ بنذرك**».

وكان طائفة منهم يتحنثون ويتخلَّون في الخلاء يتأملون ويذكرون الله جل وعلا، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد.

والتحنث يعني العزلة عن الناس والتعبد بذلك والخلوة كانت معروفة عندهم.

وكذلك الصدقة مثل ما ذكر الشيخ هنا (وَيَتَصَدَّقُونَ) كان فيهم الصدقة كثيرا كما قالت خديجة لما جاءها النبي عليه الصلاة والسلام وقد فاجأه الوحي بحراء فقالت له بعدما قصّ عليها ما حصل: كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتُقري الضيف وتعين الملهوف وتعين علىٰ نوائب الحق. أو كما جاء في كلامها، فكانت الصلة والصدقة وتسمىٰ عندهم أيضا زكاة كانت موجودة كثيرا.

وكذلك ذِكر الله جل وعلا أيضا كانوا أهل ذكر لله جل وعلا، يذكرون بأنواع من الذكر هٰذه محفوظة في أشعارهم، ومحفوظة في كتبهم؛ يعني في الكتب التي ذكرت ذلك.

واستقصاء ذلك يصعب في مثل هٰذا الشرح؛ لكن نذكر لك بعض الكتب التي ذكرت منها كتاب «بلوغ الأرب» للألوسي، ومنها كتاب «أديان العرب» لعلي الجارم، ومنها «تاريخ العرب المفصل قبل الإسلام»، وغير هٰذا من الكتب التي شرحت ديانات العرب تطهرها وصلاتها وزكاتها وحجها.

أما الحج والعمرة فهٰذا معروف مشهور حجهم للبيت تعظيمهم إياه وعمرتهم إليه.

المقصود من هٰذا أن العرب لم تكن بعيدة عن العبادة، يتعبّدون بأشياء ورثوها من دين إبراهيم عليه السلام، ومن بعض الأشياء من دين موسىٰ عليه السلام.

إذن هم مقرون بالربوبية لله جل وعلا وأن الله هو الخالق وهو الرازق وهو الرّزّاق وحده، وهو الذي يحيي وهو الذي يميت ويقولون: "ما شاء الله" ويؤمنون بالله ولكن مع ذلك لم يكونوا مسلمين؛ بل بعث الله إليهم محمد بن عبد الله يدعوهم إلىٰ أن يوحدوا الله.

كيف يكون الحال إذن؟ الحال أننا لا بد أن ننظر فيما كان أولئك علىٰ الشرك؟ بم كان أولئك مشركين؟ موحدون في الربوبية؛ الله الخالق وهو الرزاق وهو الذي يحيي ويميت ونحو ذلك، فهل هٰذا جعلهم مسلمين؟ كذلك عندهم صدقات ودعاء وذكر لله، فهل هٰذا جعلهم مسلمين؟ إنما الذي جعلهم مشركون أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، لم يفردوا الله بالعبادة، يتقربون إلىٰ تلك الأوثان وتلك الأوثان منها صور الصالحين.

فحصل من هٰذا برهان عظيم ومقدمة[1] مهمة لهٰذا الكتاب، وهي أن المشرك الذي كان في زمن النبوة لم يكن بعيدا من التعبد تماما؛ بل كان يتعبد، كان عنده نوع تعبد، نوع صلاح، من جهة أنه في الناس صاحب خير وصاحب صدقة، صاحب ذكر إلىٰ آخره؛ لكنه صار مشركا لأنه عبد مع الله جل وعلا غيره، فإذا كان الأمر كذلك كان قتال النبي عليه الصلاة والسلام لأولئك وكان تكفيرهم لأجل أنهم أشركوا تلك الآلهة الباطلة مع الله جل جلاله فعبدوا الله وعبدوها.

إذا وصلنا إلىٰ هٰذه، جاء السؤال المهم وهو كيف عبدوا تلك الآلهة؟ هل ادعوا في اللاّت وفي العُزىٰ ومناة وهبل وودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر وإساف ونائلة، هل ادعوا أنها تخلق ؟

فالجواب: لا، هل ادعوا أنها ترزق استقلالا؟ الجواب:لا، قال جل وعلا: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس:٣١] بلا جدال، يقولون: الذي يرزق ويحيي ويميت هو الله.

فإذن حين يسألون تلك الآلهة الباطلة الرّزق، حين يسألونها أن ترزقهم هل يعتقدون فيهم أنها تملك الرِّزق استقلالا؟

الجواب: لا؛ لأن الله جل وعلا أخبرنا بأنهم لو سئلوا من يرزقكم من السماء والأرض لقالوا: الله يرزقنا، فإذن لم صاروا مشركين؟ لأنهم جعلوا تلك الآلهة وسائط في طلب الرزق، شفعاء في طلب الرزق، ولهٰذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعدها: (وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ المَخْلُوقات وَسَائطَ بَيْنَهم وبَيْنَ الله) هٰذه الوساطة لها جهات:

الجهة الأولىٰ: جهة التوجه يعني نوع التقرُّب لها بالعبادة.

والجهة الثانية: مكانتها عند الله حتىٰ ترفع الحاجات.

سيأتي تفصيلها في الكتاب بعد ذلك.

قال: (وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ المَخْلُوقات) ما هٰذا البعض؟ سيأتي تفصيله إن شاء الله.

(وَسَائطَ بَيْنَهم وبَيْنَ الله) لفظ الوساطة هٰذا دقيق من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو الموافق لما جاء في القرآن في أول سورة الزمر حيث قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزمر:٣]، قال العلماء: قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا ﴾ هٰذا حصر قلب إضافي -معلوم في علم المعاني في علم البلاغة- يعني ما نعبدهم لعلة من العلل أبدًا فيهم وأنهم متصفون بأشياء من صفات الإله أبدا، لكن نعبدهم ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ فقط، وهٰذا يستفاد من قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ فهو حصر قلب إضافي؛ يعني ما نعبدهم لعلة من العلل إلا لأجل التقريب، فليس لهم شيء وليس من صفاتهم

---

(١) انتهىٰ الوجه الأول من الشريط الثاني.

أنهم يرزقون وأنهم يحيون أو أنهم يميتون أو أنهم يفيضون الخير، وإنما لأجل التقرب، وهٰذا هو معنىٰ اتخاذ أولئك شفعاء عند الله جل وعلا.

فإذن حُصرت المسألة في أن اعتقاد المشركين في أوثانهم وفي أصنافهم وفي أصنامهم من جهة الأرواح الشيطانية، ومن جهة التوجه لها لأجل أن ترفع الحاجات إلىٰ الله جل وعلا، فما كانوا يطلبون منها استقلالا، فالتشفّع كان هو ديدنهم، فطلب الشفاعة كان هو ديدنهم كان هو بغيتهم، كان كل واحد عنده في بيته وثن أو صنم يزعم أنه إذا توجه له بالعبادة حلّت روح صاحب هٰذه الصورة فيها فقَبِل الطلب ورفعه إلىٰ مكانه في الملأ الأعلىٰ، يعني أن فائدة الصورة، وجود الصورة في البيت أنها تحل فيها الروح روح صاحب هٰذه الصورة فتقبل الطلب، وليست هي عندهم أصنام محضة؛ لأنهم أعقل من أن يعبدوا حجرا محضا؛ لكن هم عبدوا حجرا معه الروح فصار أيضا ذلك قدح، صار ذلك أيضا قدح في عقلهم من جهة أنهم توجهوا إلىٰ خشب أو إلىٰ تمر أو إلىٰ حجر، إلىٰ آخره زعما بأنّ الروح تحل فيهم، فهو قدح في عقلهم لكن أخص من أن يعتقدوا في صنم مجرد يعني في حجر مجرد ليس فيه حلول الروح لتُناجَىٰ ويطلب منها التوسط.

فإذن قول الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: (وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ المَخْلُوقات وَسَائطَ بَيْنَهم وبَيْنَ الله) هٰذا هو حقيقة الوصف.

قال: (يَقُولونَ: نُرِيدُ مِنْهُمُ التَّقَرُّبَ إِلى الله ، ونُرِيدُ شَفَاعَتَهُم عِنْدَهُ) ماذا يريدون؟ التقرب إلىٰ الله، ليسوا ملاحدة، إنما في ألسنتهم ذكر الله جل وعلا، وعندهم صدقة وتعبد، لكن يريدون بذلك التقرب إلىٰ الله.

من هٰذا تعلم جهل طائفة ممن ظنّ أن تعبد المتعبد وصلاته وصيامه وزكاته يمنع من الحكم عليه بالشرك؛ لأنّ أولئك كانوا علىٰ دين إبراهيم، يعني لأن المشركين في زمن النبي عليه الصلاة والسلام كانوا علىٰ دين إبراهيم، وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**إنما بعثت لأتمم محاسن الأخلاق**» هم كانوا علىٰ خلق، كانوا علىٰ حسن في التعامل وكانوا وكانوا، ولكن لم يكونوا موحّدين.

فإذن العبرة كل العبرة في التوحيد، وليست في أنهم يحجون أو لا يحجون، يعتمرون أو لا يعتمرون، يتصدقون أو لا يتصدقون، في ألسنتهم ذكر الله أو ليس في ألسنتهم ذكر الله، ليس هٰذا هو البرهان.

لهٰذا في بعض هٰذا الزمن تجد أنه لما فشىٰ الجهل بالتوحيد، تجد أن كثيرين إذا وجدوا ومن يتكلم وفي لسانه ذكر الله جل وعلا، أو أنه يقول: الحمد لله أو يقول الله أكبر أو يقول ما شاء الله، أو يذكر الله بلسانه أو يتصدق أو يحضر المسجد أو يقرأ القرآن يزعمون أنه مسلم ولو عبد غير الله جل وعلا، وهٰذا ليس هو المقصود، وإنما هٰذه الشرائع جاءت بعد التوحيد، فإذا كان التوحيد لم يقم في قلب صاحبه، فلا تقبل هٰذه الشرائع.

قال: (يَقُولونَ: نُرِيدُ مِنْهُمُ التَّقَرُّبَ إِلى الله ، ونُرِيدُ شَفَاعَتَهُم عِنْدَهُ) وهٰذه سيأتي بسط الكلام عليها في أثناء الرسالة في مسألة الشفاعة.

قال: (مِثْلَ المَلائكَةِ وعِيْسَى وَمَرْيَمَ وأُنَاسٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) هٰذا نرجئه إلىٰ الدرس القادم.

أنا أريد من هٰذه الجملة التي مرّت معنا التأصيلية المهمة أن يتوسّع طالب العلم في معرفة أديان العرب في الجاهلية،كيف كانت؟ لأن هٰذا من العلم المهم الذي به يتضح قيمة التوحيد.

تنظر في تفاسير المفسرين حين يتكلمون عن أحوال العرب وشرك المشركين ونحو ذلك، يتعرضون لأحوال العرب، كذلك في الكتب التي ذكرنا، في كتب الحديث إذا مرت مثل الأحوال التي ذكرنا، منهم من يصلي، ومنهم من يتصدق.

أظن في حديث أيضا الذي رواه مسلم أظنه عن أبي ذر أنه كان في الجاهلية قبل أن يبعث النبي عليه الصلاة والسلام هكذا لفظه (**كنتُ أصلي ثلاث سنين قبل بعثة رسول الله** ﷺ) فهٰذه المسائل تقعيدية حتىٰ إذا جاءت شبه المشبهة فيما سيأتي يكون عند طالب العلم فرقان، يكون عنده فرقان بيّن بما تميزت به بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ودينُه عن دين المشركين الذين بعث إليهم وقاتلهم وكفَّرهم ولم يقبل منهم صرفا ولا عدلا، فتوسَّع في ذلك وانظر فيه فإنه تقعيد تنتفع به في رد كثير من الشبه التي يشبه بها أعداء التوحيد.

نكتفي بهٰذا القدر، وأسأل الله جل وعلا لي ولكم العلم النافع والعمل الصالح.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.